القصص

قصة مصرية

الخبز الرخيص

... وفتح الفتى عينيه — وكان يغمضهما كأنه يحلم — وألقى نظرة أخرى على ورقة من ورق الرسائل الأزرق منشورة امامه. ولم يكن يدرى كم من الوقت مر عليه وهو على حالته هذه — امام مكتبه، والقلم فى يده، وعيناه مغمضتان، ورأسه يحس انه يوازن كرة الارض ويدور دورانها.

واعتمد بجبينه على راحة يده اليسرى، وأرسلها نظرة تائهة الى الفضاء الذى يمتد امام نافذته، وأخذ يستعيد ذكريات ساعات قريبة:

تذكر انه كان جالسا يقطع ساعة من ساعات الفراغ والوحدة المملة بالقراءة والتفكير، فسمع الجرس يدق خمس دقات — تتصل ثلاثتها الاولى وتتفوها دقتان منفصلتان — فأسرع الى الباب يفتحه، وقد افترت شفتاه عن ابتسامة للوجه الذى سيطالعه، اذ كانت هذه الدقات سراً بينه وبين فتاته اصطلحا عليها، رفقا بأعصابه التى لم تكن تتحمل، حين يكون فى انتظارها، أن يدق الجرس ثم لاتكون هى الطارقة.

دق الجرس دقاته الخمس، ولكنه حين فتح الباب تقدمت اليه فتاة أخرى — لا عهد له بها — تبتسم ابتسامة ناقصة، فحار فى تعليل هذا. ولم يكد يبدأ التفكير حتى تقدمت اليه صاحبته — وكانت تختفى وراء مصراع الباب المقفل — وهى تقول ضاحكة: «أقدم لك صديقتى فتحية» فمد لها يده يحييها، ونظر لفتاته عاتبا وهو يقول: «ياشقية! متى تدعين هذا العبث؟»

وجلسوا ثلاثتهم وجعل الفتى [illegible] تحدث كما هى عادته مع صديقته وصاحبتها، الا انه كان يخيم على مجلسهم شىء من الفتور لم يكن يدرى له سببا. وكان يبدو على وجه الفتاتين كثير من التردد والانتظار، فقترت رغبته فى الحديث وودلو يعلم ماذا تكون النهاية وكانت كلمات تحار على شفتى فتاته أمضها كتمانها، فقامت وخطت خطوتين الى النافذة، وأطلت منها وعادت الى حيث كانت جالسا وعلى محياها دلائل العزم والتصميم وقالت:

— حقى! (وهذا اسم الفتى) هات ورقة وقلما!

— ماذا تصنعين بهما

— لاتسالنى!

وألقت نظرة الى صديقتها وتقدم لها هو ورقة من ورق الرسائل الازرق وقلما فقالت:

— اجلس هنا.

وأشارت الى المكتب فجلس وهو لا يدرى ماذا يراد به. فقالت:

— أكتب ما أملى عليك (واخذت تملى)

٢و٥ متر كريب ستان أسود، ٥ أمتار كريب جورجيت أسود. حذاء أسود رقم ٣٧ (أنيسيال) حرف (ل)

وقالت كأنما تحدث نفسها:

— يكفى حرف واحد يسمى أنا (وكان اسمها ليلى!)

والتفتت الى صديقتها قائلة: ماذا غير هذا؟

وقبل أن تجيبها قالت وكأنما تحدث نفسها مرة أخرى... كفى!

فرفع اليها «حقى» عينين حائرتين يسائلها ماذا تعنى فقالت:

— سوف آتى يوم الثلاثاء القادم فأجدك اشتريت هذه الأشياء. انى اترك الاختيار لذوقك — ثم قالت:

— سوف ترى كيف ابدو فى هذه الملابس.

فحاول أن يبتسم، ولكن شفتيه لم تنفرجا، وحاول أن يعلل مسلكها فلم يهتد الى تعليل. ترى ما الذى دعاها لان تطلب منه هذا، وقد كانت ترفض أن يهدى اليها شيئا مخافة أن يسألها ذووها عن مصدره؟ ثم هذه الطريقة التى طلبت بها ما طلبت. إنها لم تعجبه بل ومالنا لانقول إنها ساءته وأمضته ايما مضض.

وحاول أن يستبقيها حين همت بالرحيل ولكن الأعذار تسابقت الى شفتيها... وساءل نفسه — وهو يسير معها الى الباب يودعها وصديقتها — بماذا تراها تعلل مسلكها إن سألها عنه؟ ولم يجد جوابا، وانتهى الى أنها وضعت نفسها فى مأزق سوف لاتدرى كيف تخرج منه.

ووقف فى أعلى الدرج يتابعها بنظراته وهى تهبط، وطافت برأسه

حكاية الغزال والثعلب فهم أن يصيح بها . لم لم تفكرى فى الطلوع قبل ورود الماء ؟ ولكنه ارتد عن هذا وعاد الى مكتبه يفكر

وهذا هو بعد فترة — لم يكن يدرى مداها — قضاها شبه حالم فى تأمل لم يخرج منه بطائل ، ثم إنه حين فتح عينيه وعاد بعض الشىء الى حالته الطبيعية تبين أنه كتب فى غير وعى على الورقة الزرقاء — التى لاتزال منشورة أمامه — باللغة التى يعرفها « ابدا . . . ابدا . هذا لن يكون . . . » ، ذلك بانه كان قد انتهى الى مايشبه التصميم على الا يلبى طلب الفتاة ، وعلى أن يقطع علاقته بها وان لم يكن يدرى سبب هذا على التحقيق .

وجاء المساء فتوفر الفتى صدر ليلته على التفكير فى فتاته وكأنما زايلته نفسه وقفزت الى كفه ، وصارت تسائله وتحاوره وتضحك منه ساخرة . قالت له نفسه :

— تريد أن تهجرها ؟ أتراك تعنى ماتقول ؟ أتراك تستطيع أن تنسى ؟

فحط شفتيه وهز رأسه وأقفل عينيه وهو يقول :

— النسيان ؟ لقد جربته فى الماضى ونجحت التجربة فهل لا أحاول مرة أخرى ؟

— أية مغالطة ! انك لم تنس أبدا . لقد كنت تخدعنى وتتناسى . ومع ذلك حاول هذه المرة أن تنسى . العينين الباسمتين دائما ، العميقتين اللتين لم تكن تمل أن تحدق فيهما ، والشفتين اللتين كانتا تفترقان عن بسمات تسير على ضوئها أياما . . . والقبلات التى كنت تقول إنها تعوض كل مفقود وتأسو كل جرح ، وتعزى عن كل مصاب !

— كفى ! كفى ! دعنا من هذا !

— هيه ! لقد كنت ظننتك نسيت ! وفى الحق مالنا ولهذا ؟ أنت تريد أن تهجرها فهل بحثت عن سبب أطمئن اليه)

— كأنك لا تعرفيننى ! إنى أقتل قلبى ، ولا أجرح كبريائى .

— كبرياؤك ؟ ماذا مسها ؟

— لم أكن أظن أن فتاتى — كمن سبقنها — تريد أن تتقاضانى ثمن العاطفة كأن حنانى لم يكن ثمنا كافيا !

— أى سبب ؟ ! إنك لتجنى عليها . لعلك تنوء الى الحق فتعترف انها ثروة تلك التى أصابتك .

— وماذا يهمنى ؟ أليست الثروة مع عطلها عن الأسباب سببا فى حد ذاتها ؟ وللثروات أحيانا أسباب تتجاهلها . قل لى ألم تكن تحب صاحبتك ؟

— لست أدرى . وانما كل الذى أدريه انى كنت أكون سعيداً بجانبها وان نظراتها كانت تسحرنى ، وأن بسماتها كانت تضىء ظلمات وجدانى .

— ولم لم تصل حياتك بحياتها ؟ ألم يكن هذا يكفى ؟

— كان ينقصنى أن أعلم علم اليقين انها تريدنى إرادة قوية جارفة تطغى فى نفسها على كل ماعداها

— انها تريدك . والا فما الذى دعاها أن تبقى على علاقتها معك ؟

— هيه ، كثيرات يعرضن أنفسهن أو يعرضنها سلعة يتقاضين فى مقابلها خبزاً . وياما أرخصه من ثمن !

أنت تشك اذن ؟

— وأريد ان يزول الشك بأن أراها تهزأ بكل شىء وتستبيح كل شىء فى سبيل ان تبقى على أنا

— أية أنانية ! وماذا يغريها بهذا ؟

— وماذا يضيرها ؟

— ماذا يضيرها ؟ إنها فتاة . ومن حقها أن تشك وأن تظن انك تريد أن تلهو بها وأن تلعب .

— اذن أنفض يدى منها !

— وتبقى هكذا فارغ القلب دائما ؟

— ذلك أجدى من أن املأه عاطفة قد تكون مسمومة فتقتله . . . وقلب فارغ خير من لا قلب !

وعاد الى نفسه أوعادت اليه ، فخفف كثيرا من ثورته على فتاته وعزم على ان يجيبها الى ماطلبت ، وأن يتخلى عنها فى رفق ، وأن تكون هكذا نهايته معها

ومرت سنتان . . .

وذات ليلة بينما كان يقفل نافذته لينام ، راعه السكون المخيم على الطريق ، وما هى الا لحظة حتى خرقت حجب الصمت دقات ساعة فى منزل قريب . . . تن . تن ، حتى أكملت إحدى عشرة دقة وهو فى مكانه ذاهل واجم . وان صوت الجرس فى الظلام والسكون ليدخل على النفس شيئا كثيرا من الرهبة والكآبة ، وهكذا أنسته هذه الدقات برنينها المكتوم نفسه لحظة او بضع لحظات فوقف فى مكانه يفكر على هذا النحو

هذه الساعة القت بحلقات من سلسلة الزمن الى ظلام الماضى وعمقه ، وهذا هو مبعث الكآبة التى تدخلها على النفس دقاتها فى السكون والظلام .

أهكذا تمر الساعات والايام ؟ هذا عام ثان يكاد ينتهى ولما تعد فتاتى ، ترى ماذا صنع الله بها ؟ انى لا تمثلها الآن وهى تهبط الدرج لآخر مرة فى خطوات غير متزنة . إنها لم ترفع عينيها الى . أترى لم تكن تفكر فى الطلوع مرة أخرى ؟ أم ان القدر الاعمى لم يكن انباها ، وانما سارت واضعة ذراعها تحت ذراعه الى حيث لم تكن تدرى ؟ من كان يدرى ؟ . . حين القت بها المصادفة فى طريقى ، شعرت

إنى وجدت فيها الأجابة على نداء نفسي الذى كانت تهتف به منذ فجر الشباب . لقد وجدت فيها ربما أطفأ ذلك الهيام الى المجهول الذى كان يجعل العالم أمامى كرادى التيه اسير فيه على غير هدى .

وغابت عنى فعدت الى عالمى القديم صفر اليدين الا من ميت الآمال !

ومرت سنون ثلاث . . . وذات يوم كان (حقى) يسير فى شارع فؤاد فلمح اسم صديقه ابرديم . . المحامى ، على لوحته النحاسية — بين لوحات أخرى تحمل اسماء كثيرين اغلبهم اطباء — معلقة على باب العمارة ، وفجأة خطر له أن يزور هذا الصديق فى مكتبه .

ولم يكد يتخطى الباب الكبير حتى وجد فتاته . . . ليلى ! نعم هى كما كانت دائما . . . وجدها واقفة تتلى بقراءة البطاقات الموضوعة على صناديق البريد فى مدخل العمارة ، وكأنما كانت تنتظر احدا . والتقت نظراتهما ، وحار فيما هو فاعل ، ولكنه لم يدر الا وقد تقدم اليها وهو يقول :

ليلى — ! لم لم تأت يوم الثلاثاء الماضى ؟ كنت مريضة ؟ هذا هو عذرك الدائم .

وكان يوم الثلاثاء الذى يعنيه قد مرت عليه سنون خمسة ! ولكنه حين أخذ يدها بين يديه يشد عليها نسى أنه لم يرها طوال هذه المدة وهكذا شعرت هى الأخرى ، وكأنما هذه السنين قضياها كأهل الكهف نياما !

وأغمضت عينيها وكأنما أرادت أن تكر بالذاكرة الى هذا الماضى البعيد وقالت وهى تبتسم :

— كلا لم أكن مريضة ولكن حدث أن أمى خرجت معى ولم يكن فى امكانى أن أستصحبها فى زيارتى لك . قال :

— حاجاتك لاتزال فى درج مكتبى . كنت انتظر دائما دقات الجرس الخمس ، فأذهب لاقابلك بها على الباب .

لقد اشتريتها اذن ! لم أكن أحسب أنك تعتقد أنى كنت جادة فيما طلبت . . . هى صديقتى التى أغرتنى . . . تجربة لعاطفتك نحوى . ولكنى أخطأت فى السماع اليها ، وخفت ان أنا عدت اليك أن تعتقد انى انما أعود لاسألك ماطلبت

ودارت الدنيا امام عينيه ، وقال لنفسه « ما أكثر مايخطىء الانسان التقدير ! »

وفجأة رآها تتركه — وقد عراها ارتباك ظاهر — وتنظر الى الباب حيث وقفت عربة ، نزل منها شاب ناداها باسمها فهزت رأسها تجيبه ، ودارت بنظرها الى يمين المدخل منادية ياحقى !

وأصابته رجفة اذ سمعها تلفظ اسمه ، ولكنها كانت تنادى طفلا — فى نحو الرابعة من عمره — لم يكن الفتى يراه اليه . وأجابها الطفل متسائلا — ماما ؟

فمدت يدها الى الطفل ورفعت نظرها الى الفتى كأنما تسأله ان كان قد فهم شيئاً .

وركبت الفتاة والشاب والطفل العربة ، وانطلقت بهم ووقف حقى يتبعها بنظره ويصغى لوقع اقدام جيادها على الارض ، ويسمعه دون كل ماعداه من ضجة الطريق الصاخبة ، حتى لم يبق منه غير صدى يرن فى الاذن رنينا

وحينئذ أحس كأنما بدأت الارض تميد . . .

مصطفى حمدى القوني

الى خراسان

للأستاذ الرحالة محمد ثابت

من رحلة قام بها الأستاذ سنة ١٩٣٣ الى تركية والعراق وأفغانستان

الى بحر الخزر

قمت من طهران شمالا صوب بحر الخزر ، مسافة ستين فرسخاً أو نحو أربعمائة كيلومتر ، كانت المناظر فى النصف الأول منها مألوفة : ربى تتوسطها هوى من أرض مهملة ، وما كدنا نوغل فى النصف الأخير حتى زادت عقد الجبال فى صخرها الاغبر المنحل وغالبه من الجير الذى اسود بمضى السنين ، وكثرت الالتواءات الارضية وزادت طياتها وأخذ الطريق يعلو ويهبط ويلتوى على نفسه مرات متعاقبة فى وعورة لم نعهدها من قبل . بعد ذلك بدأت صفحة الجبال المعقدة تتغير معالمها اذ كساها الشجر القصير فى تفرق أعقبه تلاصق عاجل ، وما نشعر الا ونحن نوغل فى غابة كثيفة ذكرتنى بمناطق الغابات الافريقية ، وكنا بجانب وادى نهر يسمونه (النهر الابيض) يتلوى ليات متعاقبة وسط تلك الجبال اللانهائية ، وكان ماؤه آسنا اذ يفيض بالماء ابان الشتاء حين تكثر الثلوج التى تكسو تلك الجبال — جبال البرز — ولقد ظلت المناظر رائعة ساحرة خلاف ماعهدناه فى ربى ايران المنفرة التى عريت عن النبت ، ونضبت مياه مسايلها . وكانت بعض الوهاد وما يزينها من قرى صغيرة أشبه بلاد اسكندناوة وسويسرة ، على أن الشجر مختلف اذ لم أر للصنوبر من أثر حتى فى أعالى الذرى ، وكله من أشجار المناطق الحارة